الفصل السابع

اسدود والحركة الوطنية الفلسطينية

 اسدود حتى عام 1939 م

الحركة العمالية وعصبة التحرر الوطني

منظمة النجادة

منظمة الفتوة

اسدود والمقاومة

معركة سكرير

معاركُ بيت دَرَاس الثلاث

جامعة الدول العربية والمقاومة

مشروع إلغاء قرار التقسيم

الجيوش العربية وفلسطين

الجبهة المصرية

الحاكم الإداري المصري في اسدود

إحتلال مستعمرة نتساليم

الرحيل

اسدود حتى عام 1939 م

سواء في العهد التركي أو في عهد الانتداب , كانت الزعامة تتركز في المدينة , وبالتحديد في القدس لأسباب عديدة أهمها وجود الأعيان والإقطاعيين في المدينة ( القدس , نابلس , يافا , غزة , جنين , الخليل , عكا ) وتركيز المدارس في المدينة جعل التعليم حكرا علي أبنائهم ايضا , فهم القادرون علي ارسال أبنائهم الي مدرسة المدينة والي خارجها فيما بعد . أما سكان القري فكانوا محرومين من التعليم ويعملون في الأراضي لصالح الأعيان بوجه عام.

وهكذا , ففي أواخر العهد التركي , كان الأعضاء الممثلون لفلسطين في مجلس "المبعوثان" في استانبول من هذه العائلات المتنفذة في المدن ، وحين احتلت بريطانيا فلسطين عام (1917-1918) حافظت علي النظام القديم وأبقت علي النخبة من أبناء تلك العائلات. فوزعت عليهم كبري الوظائف في الإدارة الجديدة , فقبلوها شاكرين , بل أخذت العائلات في القدس تتنافس عليها لتنال الحظوة لدي المندوب السامي.

هذا التناحر العائلي لم يقتصر علي عائلات القدس فحسب بل تعداها الي المدن الاخري , فأخذت حلبة التنافس تتسع بين القدس ونابلس مثلا او بين القدس وغزة , او بين يافا والرملة . وللأسف انعكس هذا التناحر بين العائلات التقليدية علي مسيرة الحركة الوطنية منذ الأيام الأولي , وازداد تعقيدا لظهور الحركة الوطنية علي الساحة ووعد بلفور الذي قطعته بريطانيا لليهود لتأسيس وطن قومي لهم في فلسطين.

كان الوعي السياسي والحس الوطني لغالبية هذه الطبقة , من العائلات الاقطاعية والبرجوازية الجديدة التي اخذت في الظهور , سطحيّا ومحدودا , ينحصر في مصالح العائلة , او المدينة , او الطبقة اذا جاز التعبير. وكان ذلك واضحا في تقاسم المناصب الحكومية الرفيعة , او عضوية اللجان الوطنية , والوفود المفاوضة , وقيادات الحركة الوطنية علي جميع المستويات.

أما أبناء القرى ، فكانوا وقود الحركة الوطنية وشهداء ثوراتها , تروي دماؤهم تراب الوطن , كما يرويه عرقهم وهم يفلحون ارضها, ويحصدون زرعها , ويقتسمون غلالها وثمارها مع الاقطاعي القابع في قصره الكبير.

وبالرغم من حياة الفلاح البسيطة , وجهله بما يدور حوله من تنافس بين عائلات المدينة , وجد نفسه لا اراديا في خضم هذه الصراعات , نظرا لارتباطه بهذا السيد او ذاك جراء ملكية الارض التي يفلحها.

كانت هذه العلاقة اكثر وضوحاً في القرى القريبة من المدن الكبرى , اذ كانت معظم الاراضي تعود ملكيتها لاحدي هذه العائلات . وبالتالي فولاء الفلاح السياسي لابد ان يكون لصاحب الارض . وهكذا كانت , للأسف , تنقسم القرى في ولائها الحزبي والوطني . وكانت الاحزاب عبارة عن تحالفات عائلية وليست ذات مبادئ سياسية واجتماعية واقتصادية.

كانت معظم القرى تنقسم الي مجلسيين ومعارضين أي (حُسيني ونشاشيبي ). ومن حسن الحظ , فان موقع اسدود البعيد عن هذه المدن الكبرى التي كانت عائلاتها تتناحر علي الزعامة المحلية والوطنية , ترك أثرا ايجابيا علي العلاقات الاخوية بين زعماء الحمائل وافرادها.

لاشك ان شعبية الحاج امين الحسيني في معظم قرى الجنوب كانت اكثر قبولا من زعامات اخرى , لكنها لم تكن ذات جذور عميقة في اسدود . هذا الوضع جعل الناس اكثر انفتاحا وتقبلا لأفكار اخرى مادامت في مصلحة الوطن.

قامت المظاهرات والاحتجاجات الفلسطينية ضد حكومة الانتداب وسياستها ولكنها كانت محلية ومحصورة في القدس (1920) ويافا (1921) والقدس ثانية (1924). اما حادثة البراق (1928) وهو الحائط الغربي للحرم الشريف بالقدس , ويدعوه اليهود حائط المبكى ، كان سببها محاولة اليهود تغيير الاوضاع القائمة والمتفق عليها مع المسلمين منذ قرون عديدة. ورأي المسلمون في ذلك تهديدا لملكيتهم للمسجد الأقصي. وبلغ هذا النزاع ذروته في اغسطس 1929 علي اثر مظاهرة صاخبة قام بها اليهود في عيد الغفران 15/8/1929. طافوا خلالها شوارع القدس , فأثاروا مشاعر المسلمين . وفي اليوم التالي , بعد صلاة الجمعة قام المسلمون بمظاهرة عارمة وعنيفة احتجاجا علي موقف الحكومة المتراخي بل والداعم لليهود . وامتدت هذه الاضطرابات إلي الخليل ويافا ونابلس وصفد , وحصدت المئات من الارواح عربا ويهودا ومئات من المعتقلين وعشرات من احكام السجن (الاعدام والمؤبّد) ونقذت الحكومة فعلا ثلاثة احكام اعدام بسحن عكا وهم : عطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل وفؤاد حجازي من صفد.

وانتشرت الاضطرابات الي جميع انحاء فلسطين ، مدنها وقراها فهاجموا عشرات المستعمرات الصهيونية واحرقوا ودمروا عددا منها . اما في جنوب فلسطين حتي ذلك التاريخ فالمستعمرات نادرة جدا. ففي المنطقة الشاسعة بين نهر سكرير شمالا ورفح جنوبا اقيمت مستعمرتان فقط وهما: بيارتعبيا Be'er Tuvya وروحامه Ruhama. فالأولى اشترى أرضها وأقامها الممول اليهودي البريطاني البارون روتشيلد عام 1887، وهو الذي صدر باسمه وعد بلفور في 2/11/1917م وموقعها بين بيت دراس والبطاني الغربي، وتبعد عن اسدود حوالي 4-5 كيلو مترات شرقا.

أما روحامة Ruhama فأنشئت عام 1911 في شمال منطقة النقب , ودمرت في اعقاب الحرب العالمية الاولي واعيد بناؤها بعد الحرب , ثم دمّرت ثانية في احداث عام 1929 , وفشلت محاولات اعادة بنائها عام 1932 بسبب مقدمات ثورة 1936 , واعيد بناؤها فقط عام 1944.

أثناء هبّة اغسطس عام 1929 والمعروفة ب(هبّة البراق) تجمع عدد كبير من سكان القري المجاورة لمستعمرة "بيارتعبيا" من اسدود وبيت دراس والمسمية والقسطينة والبطاني الغربي وهاجموا المستعمرة واحرقوها كاملة. وكانت الخسائر في الارواح قليلة جدا من الطرفين. وكثير من اهالي اسدود والقري المجاورة كانوا يؤرخون ولادة ابنائهم أو زواجهم بسنة "حرق الكوبّانية" وهو الاسم الذي كان يطلقه الفلاحون علي المستعمرة اليهودية . واعيد بناء "تعبيا" في سنة 1930 . وكانت اسدود من القري التي فرضت عليها حكومة الانتداب غرامة جماعية نظرا لاشتراكها في احداث عام 1929.

لا شك ان العامل الديني كان السبب المباشر لاندلاع "هبّة البراق". ولكن العامل الاساسي وراء تلك الاحداث وما اعقبها من ثورات هو احساس الفلاحين بالأخطار التي تتهددهم جراء ازدياد سيل الهجرة اليهودية , وحيازتهم للأراضي الزراعية الخصبة، وبالتالي حرمان الفلاحين من المصدر الاول والأهم لحياتهم , وتخوفهم من ان ذلك سيؤدي لاحقا الي سيطرة اليهود علي مقدرات البلاد وتولّي مقاليد الحكم فيها . وفي هذا دليل علي تنامي الوعي الوطني والسياسي وادراك الابعاد الخطيرة لسياسة الاستعمار والصهيونية في أوساط عرب فلسطين.

والمشاركة الثانية التي قام بها اهالي اسدود كجزء من نضالهم في صفوف الحركة الوطنية , كانت خلال ثورة عرب فلسطين الكبري (1936-1939) والتي بدأت باضراب وطني عام دام اكثر من ستة أشهر ( ابريل- اكتوبر 1936) والذي كان أطول اضراب في تاريخ الحركات الوطنية في العالم. وقد فشلت جميع مساعي بريطانيا لفك الاضراب بالرغم من تعزيز قواتها باستدعاء قوات اخري من قبرص ومالطة ومعسكراتها في قناة السويس. واخيرآ لجأت الي اصدقائها من الساسة والحكام العرب الذين توسطوا لدي اللجنة العربية العليا لفلسطين واقنعوها بفك الاضراب والاعتماد علي "حُسن نوايا الحكومة البريطانية" وعلي وعد الحكام العرب بمواصلة السعي لمساعدة الشعب الفلسطيني.وفعلا انتهي الاضراب وجاءت اللجنة الملكية التي اوصت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ونشرت تقريرها عام 1937.

هذا الموقف خيّب آمال عرب فلسطين فاستأنفوا الثورة المسلحة. اما الحكام العرب فاكتفوا بالرفض والشجب كالعادة. ومما زاد النار اشتعالآ ان حكومة الانتداب قامت بحملة اعتقالات شملت الالاف من عرب فلسطين ونفت بعض القادة الي مستعمراتها. ولكن الثوار تمكنوا من بسط سيطرتهم علي مناطق عديدة من البلاد سيطرة كاملة , ولم يعد لسلطة الحكومة فيها أي أثر. واصبحت اللجان القومية التي تشكلت في المدن والقرى هي المسئولة عن تصريف الأمور مدنية كانت ام عسكرية.

في هذا المجال شارك المجاهدون من اهل اسدود مع المجاهدين من اهالي القرى المجاورة مثل حمامة , بيت دراس ,السوافير , البطاني , يبنا والمسمية في عمل جماعي منظم وهو خلع قضبان سكة الحديد بهدف تعطيل طرق المواصلات التي كانت تستعملها قوات الحكومة لملاحقة الثوار ومطاردتهم. وقد تمكن الثوار من اتمام مهمتهم في ليلة واحدة من محطة المجدل مرورا باسدود وحتي محطة يبنا. كما قام مجاهدو اسدود بتدمير بيارات البرتقال التي يملكها اليهود الصهاينة في اراضي سكرير. والجدير بالذكر أن أحد ابناء القرية ، وهو ذيب علي أبو زينه ، كان قائداً لفصيل في ثورة عام 1936.

امام هذه الانتصارات والانجازات الرائعة للثورة , اخذت الحكومة البريطانية تتراجع عن موقفها المؤيد لمشروع التقسيم الذي اقترحته اللجنة الملكية. ولكنها في نفس الوقت لم تتهاون في الاجراءات العسكرية , فقررت اقامة سياج امني علي الحدود الشمالية والشمالية الشرقية ( مع سوريا ولبنان) حيث انها كانت المصدر الاهم لإمدادات الثورة بالسلاح والمتطوعين , أملآ في عزل الثورة واخمادها.هذا السياج الأمني عرف بخط تيغارت ، نسبة إلى صاحب الفكرة الجنرال Tegart. فأقام سياجا من الأسلاك الشائكة على طول 80 كم ، وبارتفاع 3 أمتار ، وعرض 3 أمتار ، وبنى عليه 15 برجاً للمراقبة , كما بثت الالغام حوله. وشمل المشروع اقامة عشرات من مراكز الشرطة علي هيئة قلاع مسلحة , كما اقام عددا كبيرا من الأبراج مستديرة الشكل ( طابية ) في المواقع الحساسة والهامّة لخطوط المواصلات مثل جسور سكة الحديد في اعقاب ما قام به الثوار من خلع وتدمير عشرات الكيلو مترات من سكة الحديد. وفي هذا المجال اقيمت "طابية" علي جسر اسدود وكان يقوم بأعمال الحراسة فيها قوة بوليس "اضافي" تختلف عن قوة البوليس في مراكز الشرطة.

علاوة علي ذلك، اعتقلت الحكومة ما يزيد علي تسعة الاف شخص وعدة الاف آخرين بقانون الحبس الاداري دون محاكمة (هذا القانون نفسه لاتزال سلطات الاحتلال الاسرائيلية تستعمله في الاراضي المحتلة , وفي داخل اسرائيل نفسها مع المواطنين العرب ). كما خول القانون العسكري سلطات الأمن اصدار احكام سجن سريعة. وقد قام الدكتور فورستر Forster بزيارة معتقلات النساء والرجال والأطفال في منطقة حلحول (1938-1939) وقدم تقريراً صارخاً وفاضحاً عن معاملة السلطات البريطانية للمعتقلين قائلا: " ان باستطاعة الجنود البريطانيين ان يعلّموا هتلر شيئا لم يعرفه نظامه عن كيفية ادارة معسكرات الاعتقال ".

والجدير بالذكر ان حكومة الإنتداب البريطاني سمحت بتشكيل فرق خاصة تعمل ليلاً لإرهاب السكان ، خاصة في الجليل , قوامها 200 عسكري ، منهم 150 يهودي وقد شاركت الوكالة اليهودية في تحمل تكاليف هذه العمليات وتمويل النشاط الاستخباري (التجسس) لدعم تلك العمليات الارهابية. وبالرغم من كل هذه الاجراءات التعسفية ، استمرت الثورة تتصاعد وتقدم التضحيات حتي اصدرت الحكومة البريطانية بيانا سياسيا في نوفمبر 1938 , تضمن عدم امكانية تنفيذ مشروع التقسيم ، وبالتالي تخلّت عنه. ولكنها في نفس الوقت اتبعت سياسة المراوغة والخداع ، فدعت الي عقد مؤتمر لندن في اوائل عام 1939 بهدف التسويف وكسب الوقت وشق الصف العربي ، سواء في فلسطين أو خارجها ، لأن سماء اوروبا كانت ملبّدة بغيوم الحرب. ولذلك رأت بريطانيا ، بناء علي توصيات القادة العسكريين ، ان مصالح الامبراطورية تقتضي ان تؤمن طرق مواصلاتها عبر البلاد العربية , فتضمن الهدوء والامن في الاقطار العربية الخاضعة لنفوذها حتي تتفرغ لمشاكل الحرب التي كانت علي الابواب.

ونظرا لهذه العوامل ، وخاصة الظروف الحرجة التي سادت اوروبا , وبعد ان فشل مؤتمر لندن الذي انعقد في عام 1939 في الاتفاق على أسس مشتركة , اصدرت بريطانيا خطة سياسية جديدة عرفت " بالكتاب الابيض " الذي رفضه العرب ، كما رفضه اليهود ايضاً. وقد نص الكتاب الابيض علي اقامة حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات ، كما صرحت بريطانيا فيه ايضا " انه ليس من سياستها ان تصبح فلسطين دولة يهودية ". ولكن الحقيقة ان صدور الكتاب الابيض كان ضرورة حتمتها الظروف السياسية في اوروبا ومصالح الامبراطورية البريطانية. ولم تكن نية بريطانيا صادقة في اصداره ، بل كان نتيجة لسياسة انتهازية ، باستراتيجية قصيرة الامد ، لترضية العرب من اجل خدمة المصالح العليا للإمبراطورية. اوجه الشبه كبيرة مع ظروف اصدار وعد بلفور خلال الحرب العالمية الاولي ، مع اختلاف جوهري ، وهو أن بريطانيا كانت اكثر التزاما بتنفيذ وعد بلفور من التزامها بتنفيذ الكتاب الابيض , وذلك يعود بدرجة كبيرة الي موقف يهود العالم الضاغط علي بريطانيا , وموقف العرب المتخاذل والمتأرجح من قضية عرب فلسطين.

الحركة العُمَّالية وعصبة التحرر الوطني

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية نشطت الحركة العمالية في جميع انحاء فلسطين , فبناء الطرق والمعسكرات زاد من الطلب علي الايدي العاملة.

ففي اسدود الي جانب العمال والموظفين الذين كانوا يعملون في سكة الحديد من قبل اصبح عدد كبير من الشباب يعمل في بناء المعسكرات والطرق العامة اللازمة لها , ليس فقط في معسكر ابوجهم بين اسدود وحمامة , ومعسكر 69 بين اسدود وبيت دراس , بل كان بعضهم يعمل في معسكرات بعيدة مثل معسكر شحمة ومعسكر وادي الصرار ، مع تأمين مواصلاتهم من جهة العمل. هذه الظروف ساعدت كثيرا من الشباب على ان يكتسبوا خبرات حرفية وفنية كالنجارة , والحدادة , والادارة , وتصليح السيارات , والبناء , عادت عليهم بالمنفعة والخير فيما بعد.

ومن ضمن هذا التطور الجديد في سوق العمالة في البلاد بشكل عام , ظهرت فئة اخرى ولكنها موسمية وهي عمال قطف الحمضيات ، وهي عملية متكاملة من عمال القطف ، واخرين لفرز النوعية ، ولف الثمار الجيدة بورق خاص وتعبئتها في صناديق للتصدير ، ونجارين لصناعة الصناديق ، وشاحنات لنقلها الي موانئ التصدير مثل يافا وحيفا. وعلاوة علي هذه الفئات من العمال التي اخذت تظهر في القرن العشرين ، كان هناك العمال الزراعيون الموجودون لقرون طويلة. الطبقة العاملة موجودة علي مدي الاجيال , لكنها كانت تفتقر إلي التنظيم لتشعر بذاتها واهميتها في بناء مجتمعاتها. وهكذا كان الحال في فلسطين وبالتحديد بين عرب فلسطين.

كانت هناك حاجة ماسّة لتنظيم هذه الطبقة لتقوم بواجبها الوطني كطرف أساس من اطراف الحركة الوطنية العربية. وفعلا قامت عدة تنظيمات عمالية عربية في فلسطين وحققت مكاسب هامة مادية واجتماعية وسياسية لأعضائها. ومن اهم هذه التنظيمات جمعية العمال العربية الفلسطينية ومؤتمر العمال العرب . وكانت بدايات جمعية العمال علي شكل نادي لعمال سكة الحديد العرب في حيفا التي كانت المركز الرئيس للتجمعات العمالية في فلسطين ، ويعزى الفضل في تأسيسها الي عبد الحميد حيمور في العشرينات من القرن الماضي.

اما مؤتمر العمال العرب ، فقد تأسس في عام 1945 ، وكان من أعضاء لجنته التنفيذية مخلص عمرو , بولس فرح , فؤاد نصار , وسليم القاسم. ويمكن اعتبار مؤتمر العمال الساعد الايمن لعصبة التحرر الوطني التي تشكلت في عام 1943. وقد أصبح فؤاد نصار ، الامين العام لمؤتمر العمال العرب ، وعضو اللجنة المركزية للعصبة ، ثم امينها العام في عام 1948.
وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية ، دخلت الحركة العمالية الفلسطينية المعترك السياسي. وأخذ ممثلو الحركة يشاركون في المؤتمرات الدولية للعمال ، فأثار ذلك مخاوف بعض القيادات التقليدية للحركة الوطنية ، وحاولوا احتواء الحركة العمالية ولكنهم فشلوا خاصة للخلاف العقائدي. وشنت القيادات التقليدية ، ممثلة في الهيئة العربية العليا ، هجوما علي النقابات العمالية واتهمت سامي طه الامين لجمعية العمال بالعمالة للاستعمار والصهيونية. وفي 11/9/1947 اغتيل سامي طه امام منزله في حيفا ، وأدّي ذلك الي قيام موجة عارمة من السخط والغضب في الاوساط الشعبية بوجه عام والوسط العمالي بوجه خاص. واتهمت الحركة العمالية الهيئة العربية العليا باغتيال زعيمها سامي طه.

وفي ضوء هذه العجالة عن الحركة العمالية في فلسطين ، نستطيع ان نفهم نشاط الحركة العمالية في اسدود والدور الذي قام به محمد خالد البطراوي في ذلك المجال. كان محمد خالد ، أثناء دراسته في ثانوية غزة ، نشيطا في اوساط الطلاب. وقد هدده مدير المدرسة ممدوح الخالدي بالفصل من المدرسة اذا استمر في نشاطه السياسي ، وبالفعل طرد من المدرسة وعاد الي اسدود. وكانت عصبة التحرر في غزة نشطة بين طلبة الثانوية والمدرسين.

ولما عاد محمد البطراوي الي اسدود ، باشر نشاطه السياسي في اوساط المدرسين والمتعلمين من ابناء البلدة ، فوجد قبولا وتشجيعا منهم وبالفعل تشكلت مجموعة انتسبت للعصبة ، وامتد نشاطها بين الوسط العمالي في اسدود والقرى المجاورة.

كانت عصبة التحرر نشطة جدا في الوسط الطلابي وقد شجعت بعضهم علي تشكيل اتحاد للطلاب العرب وكانت نواته من طلاب المدارس الثانوية الاهلية مثل كلية غزة لأن لوائح الحكومة كانت تمنع طلاب المدارس الحكومية من القيام بأي نشاط سياسي. واذكر جيدا انه في عام 1947 جاء وفد مكون من جويد الغصين ومنصور حداد ، وكانا طالبين في كلية غزة الي المجدل واتصلا بي وتحدثنا في موضوع تأسيس فرع لاتحاد الطلبة بالمجدل ، ولكن احداث فلسطين المتلاحقة حالت دون اخراج الفكرة الي حيز التنفيذ.

وكنت آنذاك طالباً بالصف الثاني الثانوي بمدرسة المجدل الثانوية. وربما كان مدرس الرياضيات الأستاذ فخري مكي أو محمد خالد البطراوي هو الذي رشحني لأكون نقطة اتصال بالمدرسة. وكثيراً ما ارسل معي الأستاذ فخري مكي ، والذي اصبح بعد النكبة مسؤول العصبة في قطاع غزة ، رسائل ومنشورات لتسليمها الي محمد البطراوي واحيانا الي الاستاذ حسين نجم ، الذي كان حريصا علي قضاء العطلة المدرسية في اسدود وكنا نستمتع باحاديثه. واذكر جيدا أن بعضها كان ضد مشروع المعاهدة المصرية- البريطانية المعروفة باسم " صدقي – بيفن" عام 1948 والمعاهدة العراقية – البريطانية ( جبر – بيفن ) في عام 1948. ومما يجدر ذكره ان الشعبين المصري والعراقي أسقطا المعاهدتين قبل توقيعهما في يناير 1948 ، من خلال المظاهرات الدموية الصاخبة. وكان محمد البطراوي عضوا في اللجنة المركزية لاتحاد الطلاب العرب في فلسطين ومن خلاله أصبح عضوا فعالاً في عصبة التحرر الوطني.

وكان فرع العصبة في اسدود يضم شباباً مثقفاً ومشهوداً له بالحس الوطني ، ومنهم محمد خالد البطراوي ، ومختار حمولة الزكاكتة محمد عبد الرحمن زقوت ، وعبد الله ربيع زقوت ، وعبد الحميد طقش وهما من مدرسي مدرسة اسدود ، وحسين محمود نجم ، وكان مدرسا للرياضيات بثانوية اهلية في يافا ، وكان زميله في المدرسة رشدي شاهين من نابلس ، وهو من الاعضاء البارزين في عصبة التحرر. اما حسين نجم فكان مفكرا ذكيا ومثقفا وكان دمثا وخلوقا ومشجعا لأبناء اسدود علي العلم والتعلم. وكان المختار محمد عبد الرحمن زقوت سكرتيرا لفرع العصبة في اسدود.

لم يقتصر نشاط فرع العصبة في اسدود فقط بل نجحت في تأسيس فروع لها في القرى المجاورة مثل بيت دراس. وكان سكرتير الفرع فيها حسين مطاوع ( ابو صدقي ) ، وفي البطاني الغربي كان سكرتير فرعها المختار محمد حسن فرحات. كما عمل فرع العصبة في اسدود علي تشكيل فرع لمؤتمر العمال العرب ، في اسدود والقرى المجاورة ، وقد حرص المسؤولون ان يكون الفرع ممثلا لجميع الحمائل وكانت هذه خطوة ذكية في مجتمع قروي. فكان أحمد إبراهيم البيومي (ابو السعيد ، المشهور بالبيك) من الجودة ، وخالد محمد كساب من الدعالسة ، وابراهيم البطراوي من المناعمة , وعطية عبد الحي من الزكاكتة (آل زقوت).

كان محمد البطراوي شعلة متقدة من الذكاء والنشاط. وكانت دماثته وطيبته وثقافته هي سلاحه في علاقاته الخاصة والعامّة ، وفي نشر أفكاره التقدمية لخدمة القضية الوطنية في الدرجة الاولي. ففي عام 1946 ، علي اثر نشر تقرير اللجنة الانجلو – امريكية ، والتي اوصت بإدخال مئة الف مهاجر يهودي الي فلسطين ، والذي جاء مناقضا لما تعهدت به بريطانيا في الكتاب الابيض ، الذي أصدرته في عام 1939 ، عمت الاحتجاجات والمؤتمرات الشعبية كافة أنحاء فلسطين تنديدا بذلك التقرير. وأقامت عصبة التحرر عددا من هذه المهرجانات الخطابية تشجب المؤامرة الانجلو – امريكية وتفضح خططها للجماهير الفلسطينية. ومن ضمن هذه المهرجانات عقد مؤتمر في اسدود في مايو 1946 ، دعا اليه ونظمه فرع العصبة في القرية وكان محمد البطراوي الدينامو المحرك لهذا المؤتمر لمعرفته اللامحدودة برجالات العصبة علي مستوي الوطن ولكتاباته المنشورة في جريدة "الاتحاد" ، لسان حال العصبة.

ألقي محمد البطراوي كلمة ترحيب باسم فرع العصبة وباسم أهالي قريته المضيافة متمنيا للمشاركين اقامة طيبة ونجاحا موفقا لمسيرتهم. وكان عريف المهرجان إميل حبيبي ، مدير التحرير بصحيفة "الاتحاد" ومن الاعضاء البارزين في عصبة التحرر. وكان فؤاد نصار الامين العام للعصبة المتحدث الرئيس في المهرجان. وقد شرح في خطابه موقف العصبة من القضية الوطنية الذي يتلخص في جلاء القوات البريطانية , وانهاء الانتداب علي فلسطين , وقيام دولة ديموقراطية مستقلة لسكان فلسطين يتمتع فيها المواطنون بحقوق وواجبات متساوية يكفلها الدستور, وضرورة الوقف التام للهجرة الصهيونية للبلاد. وتوالي الخطباء من احزاب اخري ومنهم عبد الرؤوف خيال ، رئيس حزب الكتلة في غزة واشاد بموقف العصبة ، مؤيدا قيام دولة فلسطينية مستقلة. وألقي حسين مطاوع من قرية بيت دراس كلمة القرى المجاورة والفلاحين بشكل عام ، منددا بالمؤامرة الامبريالية ضد فلسطين. وحيا في كلمته نضال الفلاحين والعمال في سبيل استقلال فلسطين. وحرص المسؤولون عن تنظيم المهرجان علي دعوة شخصيات عربية معروفة بنضالها الوطني ضد الاستعمار البريطاني. ومن هؤلاء كان عضوان من نادي الخريجين في السودان الذي كان يضم خيرة المثقفين التقدميين بالبلاد والذي كان لهم شرف الريادة في الحركة الوطنية السودانية ، وهما احمد خير واسماعيل الازهري ، الذي أصبح اول رئيس لجمهورية السودان بعد استقلاله في عام 1956. القي الازهري كلمة مستفيضة حيا فيها المشاركين واثني علي جهودهم , وناشد الحاضرين , والشعوب العربية بالتضامن مع شعب السودان في نضاله الوطني , كما اعلن عن دعم شعب السودان لشعب فلسطين في مسيرته النضالية.

والجدير بالذكر ان لفيفاً كبيراً من رجالات عصبة التحرر الوطني ومن احزاب فلسطينية اخري ومن الهيئة العربية العليا حضروا المهرجان. وكان منهم أسعد مكي وفخري مكي ومسلم بسيسو من غزة ، ومحمد نمر الهواري رئيس منظمة النجادة من يافا (كان لها فرع في اسدود), وفائق وراد وكان مدرسا بثانوية الخليل , وفهمي السلفيتي من قادة الحركة العمالية في غزة , وعبد العزيز العطي من ياسور , وعبد الكريم القاضي. وهؤلاء الاربعة كانوا من قادة عصبة التحرر الوطني.

شهدت اسدود نشاطا سياسيا من نوع اخر في عام 1946 وهو انشاء فرع لمنظمة النجادة التي اتخذت من يافا مقرها الرئيسي. ومن اجل ان نفهم هذا النشاط السياسي الجديد فيحسن ان نتعرف علي خلفية ظهور هذا التنظيم الكشفي او شبه العسكري ، وما تبعه من تشكيل تنظيم آخر هو تنظيم الفتوة في فلسطين.

منظمة النجادة

كانت فلسطين تخلو من أي تنظيم عربي شبه عسكري مقارنة بالتنظيمات الصهيونية ( الهاغنا ، الارغون ، شتيرن) والتي كانت مدربة ومسلحة سواء خفية او بعلم حكومة الانتداب التي كانت تغض الطرف عن أي نشاط صهيوني. وفي نفس الوقت كانت تحّرم علي عرب فلسطين القيام بأي نشاط مماثل سراً او علنا. لكن هذا الموقف البريطاني لم يكن مبرراً للعرب بعدم المحاولة.

تعود فكرة تأسيس النجادة وتسميتها الي زيارة فريق من منظمة النجادة اللبنانية للنادي الرياضي الاسلامي في يافا في صيف عام 1945 ، في طريقهم الي مصر. وفي ديسمبر 1945 ، نشرت جريدة الدفاع بيانا موجها لعرب فلسطين عن تأسيس " منظمة النجادة الفلسطينية" ، وبعد ان نجحت في الحصول علي اذن رسمي من الحكومة بقيامها كمنظمة رياضية , اخذت بالتدريج تظهر معالمها العسكرية في الزي والالقاب والتنظيم والتدريب. وانتخب المحامي محمد نمر الهواري قائدا عاما لها, وقد اعلن منذ البداية ولاء المنظمة للمفتي والعروبة, وقد كتب علي شاراتها " بلاد العرب للعرب " ونظرا لان الشباب كانوا متعطشين لمثل هذا التنظيم فقد كان اقبالهم على هذه المنظمة منقطع النظير , وكان من بينهم الشباب المثقف وحملة الشهادات.

وتأسست لمنظمة النجادة فروع في المدن والقري حتي وصل عدد المنتسبين اليها بضعة الاف. وربما كان من اسباب هذا النجاح , ان هوية القائمين عليها كانت متواضعة ، وليست من الاسماء التقليدية للزعامات الفلسطينية ، لأن الناس كانوا قد ملّوا من الحزبية والعائلية والتنافس حول الزعامة والوجاهة لا غير. فالمؤسس محمد الهواري من مواليد الناصرة ، من قبيلة بدوية في قضاء صفد , درس القانون بالقدس , وعمل في محكمة يافا. وفي عام 1942 ، استقال من العمل الحكومي ليعمل محامياً ، وكان يتكلم الانجليزية والعبرية بطلاقة.

وبعد ان اكتمل التنظيم وتأسست الفروع في المدن والقري ، اقامت المنظمة في 26/7/1946 مهرجاناً وعرضاً عسكرياً كبيراً وكان الاول من نوعه في فلسطين سار فيه حوالي الفان من الشباب بزي عسكري موحد. وحضر هذا المهرجان عدد من الزعماء والوجهاء من شتي انحاء البلاد ، ومنهم جمال الحسيني , حسين الخالدي , احمد الشقيري , يوسف هيكل , واحمد حلمي.

منظمة الفتوة

وبالرغم من ان المتحدثين اظهروا تشجيعهم ودعمهم لمنظمة النجادة ، كانت الحقيقة غير ذلك. فالزعامة التقليدية رأت فيها تهديدا لزعامتها للحركة الوطنية. وبدأت التحركات المضادة لها ، خاصة من الحزب العربي بقيادة جمال الحسيني ، الذي اعلن بسرعة عن تأسيس منظمة "الفتوة" كجناح رسمي للحزب ، بقيادة كامل عريقات ، الذي كان ضابطاً سابقاً في قوة البوليس (الشرطة). اما جمال الحسيني ، فكان الرئيس الأعلي " للفتوة " وكان علي قادة التنظيم الجديد ان يقسموا يمين الولاء له.

وهكذا كانت المنظمة الجديدة امتداداً او تابعاً للحزب العربي , وقد بلغ عدد اغضائها حوالي ثلاثة الاف وخمسمائة شخص. وكان بعضهم قد استقال من النجادة والتحقوا بالفتوّة. وقد ظهر الصراع بين المنظمتين بشكل سافر. وقامت مفاوضات ومحادثات لتوحيد الجهود بدلاً من ذلك ، ولكنها انتهت بالفشل. واخيرا تدخل المفتي الذي كان مقيما بمصر ، فدعا الهواري لمقابلته بالإسكندرية. وبعد محادثات بينهما ، تقرر دمج المنظمتين في منظمة واحدة اسمها " منظمة الشباب العربي " على أن يكون المفتي هو الرئيس الأعلي ويقوم هو بتعيين القائد العام.
ومع ذلك ، كثرت المهاترات ووضع العراقيل والعقبات القانونية والمالية امام تغيير اسم النجادة وشعاراتها ، وكذلك الفتوة ، ولم تلتزم أي منهما بقرار الحل والدمج. وهكذا لم يتطور التدريب العسكري بل ظل تدريبآسطحيآ. ولكن هذه المشكلة التي ظهرت حول التنظيمات شبه العسكرية زادت من احباط الشباب الفلسطيني الذي كان متعطشآ لتنظيم جاد يجمعهم من اجل انقاذ الوطن.

وفي الواقع ان النجاحات والانجازات التي حققتها منظمة النجادة في التدريب والتسليح دفعت حكومة الانتداب أن تستدعي الهواري وتحذره بألا يتعدي حدود النشاط المشروع . وبعد عدة اسابيع هاجمت قوة من البوليس احدي لجان المنظمة في حيفا ، واتهم اعضاءها بالتخطيط للقيام بأعمال غير قانونية كتهديد التجار العرب الذين يتعاملون مع اليهود.

وقد بلغ عدد أعضاء منظمة النجادة عشرين الفآ ، كما يدّعي الهواري. لكن المخابرات البريطانية قدرتهم بثمانية آلاف. وربما بلغ عدد أعضاء المنظمتين غداة الدمج حوالي اثنى عشر ألفآ. وكان عدد الاعضاء من المتطوعين سابقا في القوات البريطانية والمنتسبين للنجادة حوالي الألفين.

وبالنسبة لفرع منظمة النجادة في اسدود ، فقد جاءت المبادرة من الفرع الرئيس في غزة ، والذي قام بحملة واسعة لتأسيس فروع لها في قري جنوب فلسطين. وفعلا افتتحت عدة فروع ومنها فرع اسدود ، كإحدي اكبر القري في اللواء الجنوبي. كانت هناك علاقة شخصية بين كاظم بسيسو ، رئيس فرع المنظمة في غزة ، وخالد كساب ومن هنا نشأت المبادرة. ومما ساعد علي نجاحها ان خالد كساب كان سكرتير نقابة العمال في إسدود علاوة علي الرغبة الشديدة بين الشباب للانخراط في أي تنظيم شبه عسكري يعود علي الوطن بالفائدة في ظروف كانت الحركة الوطنية أحوج ما تكون اليه.

وفعلاً اقبل الشباب في اسدود علي الالتحاق بهذا التنظيم خاصة من قبل اولئك الشباب الذين تطوعوا خلال الحرب في القوات البريطانية وكانت لديهم خبرة عسكرية ورغبة بل وحنينآ للزي العسكري والعمل الوطني. وقد تم تعيين خالد كساب آمراً لفوج النجادة في اسدود ، ومحمد عبد الرحمن زقوت نائبآ له ، وكان هذا سكرتيراً لتنظيم عصبة التحرر الوطني في اسدود. وكان من بين المدرّبين وذوي الرتب العسكرية في التنظيم عدد ممن لهم خبرة سابقة في البوليس ، مثل محمود احمد عطوان ، الذي وان سابقا في قوة الحدود الاردنية. كما كان من بين المدربين أيضاً محمد عيسي ذياب وعطية محمد عبد الحي ، وغيرهم ممن تطوعوا بالجيش البريطاني أو قوة البوليس.

كانت المبادرة في بدايتها ناجحة. ولكنها كانت تحمل في طياتها بذور فشلها ، لأسباب اهمها ان نظام الحمائل والعائلات في المجتمع القروي التقليدي كان يلعب دورآهامآ في اية علاقات تنظيمية , كما ان اختيار الاشخاص المسؤولين كانت له فاعليته. فمثلا ان اختيار خالد كساب كان بسبب علاقاته القويّة مع المسئولين بمركز البوليس بالمجدل وغزة وكان هؤلاء يترددون علي منزله خارج البلدة دون علم المخاتير او ربّما تجاهلهم، فالمختار هو الممثل الرسمي وحلقة الوصل مع سلطات الحكومة.

الي جانب عدم الأخذ في الاعتبار تمثيل جميع الحمائل في التنظيم بشكل متساوٍ او متوازن ، وعلاوة علي ذلك كان للعصبة دور واضح في هيكلة التنظيم. جميع هذه العوامل في الغالب ، اسهمت في افشال تنظيم النجادة في اسدود. اما الطرفة التي يتناقلها الناس عن احمد البيومي (ابو السعيد ، المشهور بالبيك) والرتبة العسكرية الرفيعة التي وضعها علي زيه العسكري – حتي وان صحت روايتها – فلم تكن سبباً بل كانت نتيجة حتمية للخطأ الذي وقعت فيه المنظمة حينما لم تأخذ في الحسبان تركيبة المجتمع القروي ودور الحمولة والعائلة الأساس فيه.

وهنا ايضا يجب ان لا نغفل الوضع العام الذي عاشته منظمة النجادة علي مستوي الوطن من تناحر وتنافس وخصام مع الزعامة التقليدية ، وخاصة الحزب العربي ، وذراعه العسكري-الفتوة- والذي انتهي بدمج التنظيمين في " منظمة الشباب العربي " ، مع أن اتفاق الدمج ظل حبراً علي ورق. وشيئآ فشيئآ ، ادي ذلك الي انحلال منظمة النجادة والتحاق معظم عناصرها بمنظمة الشباب التي ظل دورها شكليآ.

وفي الوقت الذي كانت تموج فيه البلاد في خضم هذه الصراعات الحزبية , كانت الامم المتحدة تبحث تشكيل لجنة خاصة لدراسة القضية الفلسطينية في ابريل 1947. وبالفعل تشكلت اللجنة في سبتمبر من نفس العام , واستمعت لمندوبي الاطراف المعنية : الهيئة العليا عن عرب فلسطين ، والوكالة اليهودية عن اليهود , ومندوبي الدول العربية. كما زارت اللجنة معسكرات اللاجئين اليهود في اوروبا , واخيرآ تقدمت اللجنة بمقترحين أساسيين. أولاً ، تقسيم فلسطين الي دولتين ، وتبنته اغلبية اللجنة. وثانياً ، إبقاء فلسطين دولة موحدة ، وتبنته الأقلية. وفي 29 نوفمبر 1947 ، نال مشروع التقسيم اغلبية بسيطة في الجمعية العامة للأمم المتحدة. وكالعادة سادت العواصم العربية مشاعر الحزن والرفض والغضب والوعيد للاستعمار والصهيونية. وفي فلسطين ، أعلن الاضراب العام لثلاثة ايام ، وقامت المظاهرات في المدن والقري بعد صلاة الجمعة ، الموافق 4/12/1947 ، تستنكر قرار التقسيم الجائر. ولكن علي ارض الواقع كان الأمر مفجعآ ومحزناً ، اذ لم يكن هناك أي استعداد لهذا اليوم في الجانب العربي ، لا في فلسطين ، ولا في غيرها من البلاد العربية.

اما الجانب الصهيوني ، فكان قد اعدّ العدّة من تنظيمات سرية وعلنية عسكرية ومدنية في المدن والمستعمرات. وكذلك علي المستوي الدولي ، كان يحظى بمسانده الدول الكبري جميعها ، بما فيها الاتحاد السوفيتي والدول الدائرة في فلكه. ومما يجب ذكره ان القيادة الفلسطينية ، ممثلة في الهيئة العربية العليا ، كانت خارج البلاد وفي هذا ما يؤدي الي شق الحركة الوطنية وإضعافها.

وتألفت "لجان قومية" (وكانت لجاناً محلية بالرغم من تسميتها بالقومية) في المدن والقري تشرف علي سير العمليات القتالية وتوفير السلاح والذخيرة للمناضلين. هذه اللجان تشكلت علي غرار اللجان القومية خلال الثورة الكبري (1936-1939). وفي معظم الحالات ، تدخلت الهيئة العربية العليا في تشكيل تلك اللجان. وقد زود بعضها بالسلاح والمال كي تتصرف وفقآ لظروفها.

ولم يكن هناك أي رابط يجمع بين تلك اللجان القومية وذلك لعدم وجود قيادة عليا علي ارض فلسطين. كل هذا ترك اثره السلبي علي مسيرة المقاومة الوطنية. فغياب القيادة المحلية والسياسية والعسكرية علي أرض المعركة ألقي اعباء ثقيلة علي كاهل اللجان القومية فوق طاقتها.

هذا هو الوضع العام الذي كان سائدا في مدن فلسطين وقراها. ففي مدينة غزة مثلا كان أعضاء اللجنة القومية خمسة وخمسين عضواً , وكانت رئاستها بالتناوب ، وفي يافا كان اعضاؤها أربعة عشرعضواً يمثلون الاحزاب والنوادي والجمعيات والطوائف المتعددة. وفي القري لم يكن الحال افضل من ذلك بكثير.

اسدود والمقاومة

ففي اسدود تشكلت لجنة قومية من المخاتير والأعيان وبعض الشباب لتنظيم الدفاع عن القرية. وأخذ الناس يشترون السلاح أينما وجدوه وبأثمان باهظة. واضطر كثير من الأهالي الي بيع مصاغ زوجاتهم لتوفير ثمن البندقية , ولكن كانت المشكلة هي كيفية الحصول على الذخيرة وقد سلمت الحكومة بندقتين لكل مختار مع عدد من الطلقات. وبعد جهد استطاعت البلدة التعاون لشراء مدفع رشاش. وبالرغم من هذا التسليح البسيط ، الاّ ان الحماس الوطني الذي كان يتمتع به الشباب ، مكنهم من الدفاع عن بلدتهم بل ونجدة القرى المجاورة ، مثل بيت دراس والقري البعيدة مثل برير ، في معاركهم ضد العصابات الصهيونية التي كانت مدججة بالسلاح والذخيرة والمصفحات. ولكن بندقية المقاتل السدودي، ومعه عشرة او عشرين طلقة ، كانت أشد مفعولآ وفتكآ بالعدو المدجج بالرشاشات والمصفحات والقنابل.

كان في اسدود ما لا يقل عن ثلاثمائة مقاتل مسلحين بالبنادق والمسدسات. وكان كل مقاتل مسؤولآ عن شراء سلاحه وذخيرته ( ما عدا البنادق الثمانية التي وزعتها حكومة الانتداب علي المخاتير بواقع بندقيتين لكل منهم).

وقامت اللجنة القومية بتوزيع مسؤولية حراسة البلدة علي الحمايل المختلفة. فكان المسلحون من الجودة مكلفين بحراسة الجهة الشمالية والشمالية الشرقية ، في حين كان الدعالسة يحرسون الجهة الشرقية ، والمناعمة يحرسون الجهة الجنوبية ، اما الجهة الغربية والشمالية الغربية فكانت حراستها مسؤولية المسلحين من حارة الزكاكتة (آل زقوت).

وكان في اسدود جرس إنذار مبكر (لانعدام **وسائل الإتصالات** الحديثة) وفعلا كان ذا فائدة كبيرة بالرغم من بساطته. وكان عبارة عن مقطع من ماسورة ماء قطرها حوالي **ستة عشر** إنشآ وطولها حوالي عشرين انشآ ، معلقة في خشبة علي سطح مقهي غبن , يقرع عند الحاجة. فيتجمع المسلحون وغيرهم ليتبينوا حقيقة الامر ، فيبحثون الوضع القائم ، ثم يتخذون القرار اللازم. فإذا كانت نجدة لاحدي القري المجاورة ، انطلقوا اليها واذا كانت بعيدة ركبوا الشاحنات. واذا كان الخطر محليا اتجهوا نحوه سيرآ علي الاقدام. وقد اثبت هذا الجرس فعّاليته في مناسبات عديدة ، وكان يسمع رنينه من مسافات بعيدة.

معركة سُكرير

دارت هذه المعركة في أرض سُكرير التي تبعد عن إسدود شمالآ حوالي سبعة كيلو مترات. ويسكن في هذه المنطقة عرب ابو سويرح ، حول مصب وادي سكرير ، وكان عددهم حوالي 350 شخصآ. هاجمتهم قوات اليهود بهدف طردهم واحتلال بلدتهم. وحين علم أهل إسدود بذلك هب المناضلون لنجدتهم ، وكان ذلك في ديسمبر 1947 ، وهي أول المعارك التي خاضها ابناء اسدود مع العصابات الصهيونية المسلحة التي تجمعت في المستعمرات القريبة (غان يبنا ، غاديرا بجوار قطرة ، ورخوبوت ) واستمرت المعركة اكثر من خمس ساعات تكبد فيها الصهاينة عددآكبيرآ من القتلى والجرحى ، قدّره البعض بحوالي 30-40 شخصاً. وتدخلت القوات البريطانية لتساعد اليهود علي استرداد جثث قتلاهم من أرض المعركة التي كانت تحت سيطرة المقاتلين العرب من عرب ابو سويرح واهالي اسدود.

وقد رفع انتصار العرب في هذه المعركة الروح المعنوية للمناضلين وزاد من عزيمتهم وتصميمهم علي القتال والصمود امام العدوان الصهيوني. كما شجعهم هذا النصر علي الاستيلاء علي بيارات اليهود في سكرير وباعوا منتوجها لتجار الحمضيات بيافا ، واستفادوا من الايراد في تسليح افرادهم وشراء الذخيرة اللازمة.

معاركُ بيت دَرَاس الثلاث

**و**شارك مناضلو اسدود في معارك بيت دَراس الثلاث. ان موقع بيت دراس علي الطريق الرئيس الذي يربط مستعمرة نيتسانيم مع بيرتوفيا (تعبيا) مع غاديرا (قطرة) جعل اليهود يصممون علي احتلالها. لذلك قرروا مهاجمتها حتي تمكنوا في النهاية من تدميرها وطرد اهلها الذين استبسلوا في الدفاع عنها بعنف وتصميم. والي جانب موقعها الاستراتيجي علي طرق المواصلات ، فإنّ قربها من معسكر 69 الذي اعتمد اليهود علي مطاره في تهريب اول شحنة اسلحة وصلتهم من تشيكوسلوفاكيا في ليلة 31/3/1948 علي متن طائرة شحن امريكية من نوع سكاي ماسترمستأجرة لهذا الغرض هبطت في مطار مؤقت بالقرب من بيت دراس. وقد شملت الشحنة 200 بندقية و 34 مدفع رشاش و 160 الف طلقة. وفي هذا دليل واضح علي دوافع الهجوم الاول في شهر آذار 1948 ، الذي يعتقد البعض أنه كان في 16/3/1948 بينما يعتقد البعض الاخر انه حدث في 29/3/1948 ، وربما يكون الثاني أكثر احتمالاُ.

علي اية حال ، حدث الهجوم الصهيوني قبيل الفجر ، وهرعت النجدات من اسدود وحمامة والمجدل ، ونجح المناضلون بالتعاون مع مقاتلي بيت دارس من صد الهجوم ودحر المعتدين بعد تكبيدهم خسائر في الارواح. وحين فشل الصهاينة في اصطحاب جثث موتاهم ، استعانوا بالقوات البريطانية والتي بدورها طلبت من المناضلين السماح لهم باستردادها.

كرر اليهود هجومهم علي بيت دراس في الشهر التالي ، في 22/4/1948 ، بقوة اكبر ومعززة بأربع مصفحات ، ولكنهم منوا بالفشل نتيجة للمقاومة الباسلة التي أبداها المقاتلون البدارسة والسدودية والحمامية فاضطر اليهود الي التراجع الي مواقعهم في المستعمرات المجاورة.

أما معركة بيت دراس الثالثة ، فوقعت في يومي 9-10 مايو 1948 ، وكانت الأشد والأعنف في سلسلة المعارك التي خاضها المناضلون ضد العصابات الصهيونية في محاولاتها المتعددة لاحتلال هذه القرية الصامدة. ففي هذا الهجوم كان العدو مزودآ بمصفحات عليها رشاشات وقنابل حارقة. وتسللت مجموعة منهم الي بعض بيوت القرية وتمركزوا علي سطوحها ، واخذوا في اقتناص المناضلين. كما قامت مجموعة اخري بتطويق القرية من الغرب ليحولوا دون وصول نجدات من اسدود وحمامة وغيرهما. واستمرت المعركة من ساعات الفجر حتي قبيل الظهر ، وتمكن المناضلون من القري المجاورة من فك الحصار الذي ضربه اليهود من الغرب ، وطردوهم من مدرسة القرية الابتدائية ، وتوغلوا في داخل بيت دَرَاس ، وكبدوا العدو خسائر جسيمة في الارواح. واستشهد عدد من المناضلين وأصيب عدد آخر.

ومن اسدود استشهد ذيب علي ابو زينة ومحمد صالح زقوت. وبالرغم من شراسة المعركة وعدم تكافؤ التسليح الا أن المدافعين أبدوا مقاومة عنيفة واجبروا العدو علي التراجع. لكن المذبحة التي اقترفها الصهاينة **ضد** النساء والاطفال ، والتي قاربت الي حد كبير مذبحة دير ياسين ، اجبرت السكان علي الرحيل لانقطاع أملهم في الحصول علي الاسلحة والذخيرة اللازمة لمواصلة المقاومة والدفاع عن بلدتهم وأهليهم. ومع ذلك لم تحتل القوات الصهيونية بيت دراس الاّ في اواخر الشهر بعد أن وصلت القوات المصرية إلى إسدود في 29/5/1948.

وفي الغالب ، **كان** هدف الصهاينة من المذبحة التي اقترفوها ضد النساء والاطفال ، هو نشر الفزع والخوف بين سكان القري المجاورة لإجبارها علي النزوح. **وهذا هو** ما حدث بالفعل مع سكان عدد من القرى مثل البطاني والقسطينة والسوافير وجولس وياسور.

كما قام المناضلون من اسدود بنجدة اخوانهم المقاتلين في جولس وبرير بقيادة المجاهد محمد صالح التونسي ، الذي عينه قائدُ المناضلين في منطقة المجدل ، طارق الافريقي ، مدرباً وقائداً للمناضلين في القرية.

هذه صورة مصغرة لما كانت عليه الحال في معظم القري الفلسطينية. كانت كل قرية تعتمد علي نفسها ، في التسليح والمقاومة ونجدة جاراتها إن استطاعت.

جامعة الدول العربية والمقاومة

تشكلت في الجامعة العربية لجنة عسكرية تقوم بمهمة دراسة الاوضاع القتالية في فلسطين ، وتنظيم حركة التطوع التي بدأت في البلاد العربية منذ اعلان قرار التقسيم. وفعلاُ ، سجل عشرات الالاف اسماءهم للتطوع للقتال من أجل عروبة فلسطين ، وتزويد عرب فلسطين بكميات وافرة من السلاح ، من بنادق ورشاشات وقنابل وذخيرة.

وفي **مارس / آذار** من عام 1948 ، قدّم اللواء اسماعيل صفوت تقريراً مطولا باسم اللجنة العسكرية **للجامة العربية** ، شرح فيه الحالة العسكرية العامة في فلسطين ، وانتهي الي أن قوات المتطوعين لايمكن ان تحقق نصراً عسكرياً حاسماً ، وطالب بضرورة تدخل الجيوش العربية بكل ما تملك من اسلحة ومعدات لتحقيق نصر عسكري حاسم. وللأسف لم يحرك هذا التقرير ساكناً في القيادة السياسية العربية.

وفي شهر **إبريل / نيسان من عام** 1948 ، انقلب ميزان القوي في فلسطين واصبح في صالح اليهود بعد أن كان في صالح العرب. فسقطت **قرية** القسطل ، واستشهد **فيها** عبد القادر الحسيني ، **وارتكب الصهاينة مذبحتي** دير ياسين وناصر الدين ، وسقطت **مدينتا** طبريا وحيفا ، وبدأ الهجوم علي يافا واوشكت علي السقوط.

وأقر العسكريون بالإجماع بأن معركة إنقاذ فلسطين تتطلب ما لا يقل عن خمس فرق كاملة التسليح مع ستة أسراب من الطائرات المقاتلة ، وقيادة عربية موحدة. وكان رد اللجنة السياسية أنها تقديرات مبالغ فيها.

وعلي كل حال تمخضت كل هذه التقارير والجلسات والمناقشات عن تشكيل جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي ، الذي قاد المتطوعين في ثورة عام 1936 ، بالرغم من معارضة الحاج أمين الحسيني ، مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين لهذا التعيين. ومع ذلك ، اثبت جيش الإنقاذ عدم فعاليته في ميدان القتال لنقص التدريب والاسلحة ، وعدم الانضباط وسوء العلاقة بين القيادة الميدانية واللجنة العسكرية في دمشق ، وكذلك سوء العلاقة بينه وبين قيادة جيش الجهاد المقدس ، والذي كان تابعة للهيئة العربية العليا لفلسطين. ولم يحظ جيش الجهاد المقدس بتأييد رسمي أو فعلي من اللجنة العسكرية التي لم تكن علي وفاق مع الحاج امين الحسيني.

مشروع الغاء قرار التقسيم

ان الوضع العسكري في فلسطين منذ اندلاع القتال بين العرب واليهود في ديسمبر/ كانون الأول من عام 1947 وحتي أواخر مارس / آذار من عام 1948 كان لا يزال الي حد كبير في صالح عرب فلسطين. في تلك المرحلة تجدد بحث القضية في مجلس الأمن بناء علي تقرير قدّمته لجنة التقسيم باستحالة قيامها بمهمتها نظراً لان حكومة الانتداب رفضت السماح لها بدخول البلاد بسبب ظروف الحرب الدامية فيها. وأضافت اللجنة أنه يستحيل تنفيذ التقسيم دون إرسال جيش دولي للقيام بذلك. ولذلك اخذت بعض الدول تعلن تراجعها عن دعمها لمشروع التقسيم ، ومنها كندا وبلجيكا والولايات المتحدة. وتقدم المندوب األأمريكي في مجلس الأمن بمشروع قرار الي المجلس في 19/3/1948 ينص على إلغاء قرار التقسيم واستبداله بفرض وصاية مؤقتة ، ودعوة العرب واليهود الي عقد هدنة ، ومناشدة بريطانيا بتمديد بقائها الي حين التوصل الي حل نهائي للقضية.

ولكن تمكن وايزمان من مقابلة الرئيس ترومان واقناعه بالعدول عن الموقف الأمريكي الجديد الذي يطالب بإلغاء قرار التقسيم. وفعلا أصدر ترومان تعليماته حالا الي المندوب الأمريكي مباشرة ، دون الرجوع الي وزارة الخارجية , بالتوقف عن تقديم مشروع القرار الجديد الي مجلس الأمن.

ومن جانبهم ، قام اليهود بهجوم كاسح في ميدان المعركة لفتح طريق تل أبيب – القدس وكسر الحصار المفروض علي الاحياء اليهودية بالقدس الجديدة. ومن هنا جاءت معركة القسطل ومذبحة دير ياسين واستشهاد عبد القادر الحسيني ، مما أدى إلى تأمين طريق تل أبيب – القدس للصهاينة. وتتابعت المصائب كاحتلال مدينة طبريا في 19/4/1948 وحيفا في 22-24/4/1948 ثم الشروع في الهجوم علي يافا في 29/4/1948 ، فسقطت في اليوم التالي حين فشل الجيش الانجليزي في انقاذها من الهاغناه ، وسقطت رسميا في 11/5/1948.

هذا بالطبع علاوة علي عشرات القرى التي احتلها الصهاينة وطردوا سكانها ثم دمروها. كل هذا حدث وبريطانيا لا تزال هي الدولة المنتدبة المسؤولة عن حماية الاهالي والمحافظة علي الأمن والنظام في البلاد.

بالرغم من كل السلبيات التي صاحبت فترة المقاومة قبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، بعد انتهاء الانتداب البريطاني في 15/5/1948 ، إلاَّ أنَّ المقاتلين من فلسطينيين وعرب قد صمدوا صمودا مذهلاً. وكانت معنويات المناضلين دوماً عالية ، وثقتهم بأنفسهم وعدالة قضيتهم لا تتزعزع ، وكانت البطولات أكثر من أن تُروى في مثل هذه الدراسة.

الجيوش العربية وفلسطين

لم يكن هناك اجماع بين الدول العربية علي دخول جيوشها النظامية الي فلسطين للدفاع عن عروبتها وانقاذ شعبها من المحنة التي ألّمّت بها. واخيراً حين توصل الزعماء العرب الي قرار التدخل كان له اسبابه ودوافعه. فالأردن ، ومن ورائه بريطانيا ، كان يطمع في ضم القسم العربي من فلسطين اليه. وكان بالطبع يجد دعماً وتأييداً من العراق ، فالعائلة الهاشمية كانت تحكم البلدين. اما سوريا ومصر والسعودية ، فكانت تعارض المشروع الهاشمي ومشروع سوريا الكبرى.

حرصت جميع الجيوش العربية بعد دخولها إلى فلسطين ان تظل ضمن المناطق التي خصصت للعرب بموجب قرار التقسيم – بناء علي القرارات السياسية – ولأنها كانت تتلقي تعليماتها من عواصمها. وإن تحركات القوات في فلسطين ومواقعها التي اتخذتها لدليل واضح علي تلك السياسة ، باستثناء الجيش المصري الذي احتل اجزاء من منطقة النقب التي خصصت للدولة اليهودية في مشروع التقسيم ، كما مدًّ خطوطه القتالية من غزة الي الخليل عبر بئر السبع ومن المجدل الي الخليل عبر الفالوجة.

وبالرغم من القيود السياسية التي كبّلت تحركات وخطط القادة العسكريين في ميدان المعركة ، وكيف كانت الجيوش تعاني من قلّة السلاح والذخيرة ، والرداءة في النوعية ، والإهمال من القيادة السياسية ، الاّ أن الجندي العربي قاتل ببسالة ، دون أن يأبه لأية اعتبارات أخري غير الصمود.

لم تتفوق اسرائيل على الجيوش العربية بالسلاح ونوعيته فحسب ، بل للأسف تفوقت بالعدد أيضاً. فبالرغم من عشرات الملايين من العرب ، لم يبلغ عدد القوات العربية علي أرض المعركة ثلاثين ألف جندي بمعداتهم العسكرية ، بينما زادت قوات اليهود الصهاينة في فلسطين علي ستين ألفا. وعلاوة علي ذلك ، استطاع اليهود ان يجلبوا آلاف المتطوعين من أوروبا وأمريكا وجنوب أفريقيا. ومعظم هؤلاء كانوا ممن خدموا في جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، ومنهم طيّارون وبحّارة وجنود مدرعات.

وعلي سبيل المثال ، كان من بين 193 طياراً في سلاح الجو الاسرائيلي 171 من المتطوعين الأجانب ، حوالي 100 منهم من الأمريكيين. وكان المستشار العسكري لرئيس الوزراء بن غوريون جنرالآ متقاعداً في هيئة أركان حرب الجنرال أيزنهاور في الحرب العالمية الثانية.

وكان اليهود في فلسطين يملكون مصانع للأسلحة تحت سمع وبصر سلطات الانتداب البريطاني ، وقد أقيم بعضها تحت حظائر الأبقار. وفي عام 1947 ، دخلت تلك المصانع مرحلة الإنتاج. فكانت تصنع مدافع هاون 2-3 بوصة ، ومدفع استِن ، وقنابل يدوية ، وكميات هائلة من الذخيرة لهذه الأسلحة.

اما في الجانب العربي ، وعلي سبيل المثال ايضا ، كان قائد وضباط الجيش الأردني من الإنجليز يتحكمون في خططه واسلحته كما يشاؤون. وقد روى قائد الجيش الإردني ، غلوب باشا Glubb ، الذي كان يلقبه الأردنيون "ابو حنيك" ، كيف ان بيفن Bevin ، وزير خارجية بريطانيا في اجتماعه مع توفيق ابو الهدي رئيس وزراء الأردن في فبراير 1948 ، طلب منه بل حذّره ، ألاّ يحاول الجيش الاردني دخول المناطق التي خصصت لليهود بموجب قرار التقسيم.

هذا جانب بسيط من الخلفية السياسية والعسكرية للظروف التي أحاطت بفلسطين حين دخلت الجيوش العربية البلاد لتحريرها من قبضة الصهاينة واعادة السلام الي ربوعها. ففي 15 مايو 1948 ، دخل الجيشان الأردني والعراقي من الحدود الشرقية ، واخذا مواقعهما في أقضية نابلس وطولكرم وجنين ورام الله والقدس والخليل ( ما اصبح يعرف بالضفة الغربية ) ، وكذلك مدينتي اللد والرملة. اما الجيش المصري ، فقد دخل فلسطين من الحدود الجنوبية وانتشرت قواته علي طول الساحل الفلسطيني حتي إسدود شمالاً ، ثم امتدت خطوطه الي بئر السبع والخليل وبيت لحم. ومن المجدل ،إتجه شرقاً إلي الفالوجة وبيت جبرين والخليل. بينما الجيش السوري دخل من الحدود الشمالية الشرقية ، حول سمخ وبحيرة طبريا ، لكنه لم يتوغل كثيرآ في ارض فلسطين لضعف إمكاناته العسكرية. وكذلك الحال بالنسبة للجيش اللبناني ، الذي ظل داخل حدود لبنان. والبعض يبرر ذلك لأن كلا البلدين سوريا ولبنان كانا حديثي العهد بالاستقلال.

ومما يجدر ملاحظته في الخطة العربية هو تهميش الفلسطينيين. فلم تنص الخطة ، بل لم تشر ، لا من قريب ولا من بعيد ، إلى دور لعرب فلسطين الذين دخلت الجيوش العربية لإنقاذهم من العدوان الصهيوني. فمثلا حينما دخل الجيش الاردني الارض العربية من فلسطين صدرت الأوامر لجيش الانقاذ بالانسحاب من الضفة الغربية ، كما قامت السلطات الاردنية بنزع السلاح من ايدي المقاتلين الفلسطينيين. وهكذا تأكد منذ قرار اللجنة السياسية للجامعة العربية ، بأن زمام المبادرة والقول الفصل في القضية الفلسطينية لم يعد في أيدي عرب فلسطين ، بل أصبح في أيدي الدول العربية. بل ويمكن اعتبار تدخل الحكام العرب في أكتوبر 1938 لإيقاف الثورة هو البداية في تهميش الفلسطينيين ونزع زمام المبادرة من أيديهم.

الجبهة المصرية

في اواخر ابريل من عام 1948 ، تعين اللواء احمد علي المواوي قائداً للحملة المصرية الي فلسطين ، كما تعين الاميرالاي محمد مجيب نائبا له. وكانت الحملة مشكلة من الكتائب الثلاث : الاولي والسادسة والتاسعة ، بالإضافة إلى بعض الكتائب المساندة من سلاح الدبابات والمدفعية والسلاح المضاد للطيران. وبعد عدة اسابيع ، تعززت هذه القوات بثلاث كتائب احتياط ، هي الثالثة والرابعة والسابعة.

علي أي حال ، عبرت القوات المصرية الحدود من رفح ، واتجهت شمالاً نحو مدينة غزة ، فدخلتها في نفس اليوم ، 15 مايو/أيار 1948 ، واتخذت القيادة المصرية مواقعها في غزة. وفي 19 مايو/أيار ، استأنفت القوات المصرية زحفها شمالاً نحو المجدل. إلى أن اعترضتها مستعمرة دير سنيد ، التي كانت قائمة علي مرتفع يتحكم في الطريق العام ، وامطرتها بوابل من الرصاص. فصمم الجيش المصري علي احتلال هذه المستعمرة لأهميتها الاستراتيجية ، وفعلا حقق اهدافه باحتلالها في صبيحة 24 مايو/أيار. وفي نفس اليوم ، دخلت القوات المصرية المجدل ، واتخذت منها موقعاً للقيادة العامة للقوات المصرية في فلسطين.

وبعد يومين من دخول القوات المصرية إلى المجدل ، ذهب وفد من مخاتير إسدود واعيانها لمقابلة القيادة المصرية ، وطلبوا منها سرعة التوجه نحو بلدتهم. وفعلاً ، وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً من يوم السبت ، الموافق 29 مايو/أيار من عام 1948 ، دخلت طلائع القوات المصرية إلى إسدود ، وكانت بقيادة الاميرالاي محمد نجيب (والذي ترقي الي رتبة لواء فيما بعد ، ثم أصبح أول رئيس لمصر بعد ذلك). وبعد مسيرة ثلاثة كيلو مترات شمال البلدة ، أي علي حافة وادي العسل شمالي محطة سكة الحديد ، اخذ مواقعه ، وشرع في إقامة استحكاماته وخطوطه القتالية. وكانت فرحة الاهالي عارمة واستقبالهم للجيش المصري حافلاً ومرحباً ، فأخذت النفوس تطمئن وتهدأ أكثر من ذي قبل.

ولكن قبل ان تغرب شمس ذلك اليوم ، ظهرت في سماء البلدة أربع طائرات اسرائيلية ، أخذت تقصف المنازل ، بعد ان فشلت في الاقتراب من المواقع المصرية التي تصدت لها بالمدفعية المضادة للطيران ، فأنزلت حمولتها علي البلدة حيثما سنحت لها الفرصة ، ولكن بمشيئة الله لم ينتج عنها اصابات تذكر. ونجحت المدفعية المصرية في إسقاط طائرتين ، إحداهما في أرض السلاق جنوب البلدة ، وقد ذهب الناس ليشاهدوا حطامها. اما الثانية ، فسقطت إلى الشمال من مواقع الجيش المصري.

وهذه الغارة ، كانت الأولي منذ 15 مايو/أيار ، وربما كانت رداً علي هجوم الطيران المصري علي تل أبيب في 15 مايو/أيار ، والذي أوقع خسائر فادحة في الأرواح. وقد اعترف الصهاينة بخمسة وأربعين قتيلاً واكثر من مئة جريح ، من جراء غارة يوم 18 مايو/أيار.

وفي اليوم التالي لدخول القوات المصرية إلى اسدود ، عاودت الطائرات الاسرائيلية هجماتها ، ولكنها لم تصب أية اهداف عسكرية أو مدنية هامة ، ولم تحدث أية أضرار مادية جسيمة أو خسائر بشرية. وهكذا فشل الطيران الاسرائيلي في المحاولتين من تحقيق أهداف عسكرية ، لكنهما ربما تركتا بعض التأثير النفسي علي السكان ، او ربما كانتا نوعاً من التهديد للقوات المصرية بعدم الاستمرار في الزحف شمالاً نحو تل أبيب.

ولذلك رأينا اسرائيل تقوم بخطوة عسكرية جريئة وبسرعة. ففي ليلة 2-3 يونيو/حزيران ( مساء الأربعاء- ليلة الخميس) ، شنّت القوات الاسرائيلية هجوما عنيفا كاسحا ، قوامه اكثر من ألفي جندي ، ضد القوات المصرية ، التي لم تكن قد استراحت أو اكملت انتشارها أو حفرت خنادقها بعد. شمل الهجوم جميع الجهات الأربع. وقد تمكنت بعض العناصر اليهودية من دخول بعض البيوت الواقعة في أطراف البلدة وقتلوا افرادها ، رجالا ونساءً واطفالا ، وهم من عائلتي محمد الناطور واحمد العروقي. كما تسلل بعض الجنود الإسرائيليين قريبا من مركز القيادة المصرية ، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة وقتل بعضهم.

دار القتال الشرس علي الجبهة الشمالية والجبهة الغربيّة. ففي الأولي ، أبلي الجيش المصري بلاء حسنا ، وردّ الهجوم علي أعقابه خاسراً. أما على الجبهة الغربية ، فقد تصدي أبناء البلدة المسلحون بأسلحة خفيفة وطاردوا الجنود اليهود في كثبان الرمال المعتادين عليها. وهناك قصص عجيبة من المناضلين الذين اخذوا يقبضون علي جنود العدو بأيديهم بعد ان تعطلت بنادق اليهود بسبب دخول الرمل إليها. كما رأيت وسمعت بعض ضباط القيادة المصرية وهم يقفون علي منطقة الراس في الطريق الي البحر يشاهدون بالناظور المكبر (الدوربيل) المقاتلين المسلحين السدوديين وهم يركضون وراء اليهود في كثبان الرمال ، حتي يقبضون عليهم ويأخذون سلاحهم ثم يقتلونهم او يأسرونهم. وقد ابدي الضباط المصريون إعجابهم بشجاعة المقاتلين السدوديين وبسالتهم. وكان ذلك في ضحي الخميس ، الثالث من يونيو/حزيران 1948. أما في الجنوب ، فقد نصب اليهود كميناً علي الطريق العام ، مقابل مستعمرة نيتسانيم ، للحيلولة دون وصول نجدة للقوات المصرية في إسدود من القيادة بالمجدل. وبالفعل ، اشتبك الكمين الصهيوني مع رتلٍ من القوات المصرية قادماً من المجدل. لكن الكمين الصهيوني قد اضطر إلي الانسحاب نحو مستعمرة نيتسانيم امام كثافة النيران المصرية. وربما كان هذا الحادث عاملاً هاماً ، بل حاسماً ، في اتخاذ المصريين قراراً باحتلال مستعمرة نتسانيم في نفس الاسبوع.

يقول كامل الشريف ، الذي حارب في فلسطين من ضمن كتيبة الإخوان المسلمين المصريين ، كان الهجوم الاسرائيلي علي القوات المصرية في اسدود نقطة تحول في الحرب المصرية-الاسرائيلية. فقد اضطرت القيادة المصرية أن تغير من خططها. فبدلآ من متابعة الزحف شمالاً ، قررت الاكتفاء بفصل النقب عن باقي البلاد. وكانت القوات المصرية ، حسب الخطة الموضوعة ، ستتقدم الي يبنا ، ولكنها توقفت في اسدود بعد هجوم يونيو/حزيران. وحول نفس الموضوع ، يقول الباحث الدكتور فواز جرجس أن اللواء المواوي ، قائد القوات المصرية ، قد أخبر قيادته بالقاهرة بأنه لا يستطيع ان يتقدم خطوة واحدة دون حدوث كارثة ، نظراً لنقص في المعدات والجنود. وعلي العموم ، فقد تعلّم اليهود درسآ من هجومهم الفاشل ، ولم يكرروا مثل ذلك الهجوم علي إسدود حتي انسحاب القوات المصرية منها في اواخر اكتوبر/تشرين أول من عام 1948.

الحاكم الاداري المصري في اسدود

بعد دخول القوات المصرية إلى فلسطين ، كلفت الحكومة المصرية سلاح الحدود المصري بإدارة المناطق الواقعة تحت سيطرة القوات المصرية بفلسطين. فتعين مدير سلاح الحدود الحاكم العام لهذه المناطق. وفي غزة ، كان يقيم نائب الحاكم الإداري العام ، ويعاونه حكام اداريون في المدن والقري التابعة لقضاء غزة. وتولى هذا المنصب القائم مقام (العقيد) مصطفي الصواف. اما الحاكم العام ، اللواء محمود فهمي عكاشة ، فكان مركزه بالقاهرة. وفي اسدود ، كان الحاكم الإداري الملازم اول جمال الدين صابر، الذي ترقى بعد شهر إلي رتبة يوز باشي (نقيب) ، وكان يعاون الحاكم الإداري رجال من حرس سلاح الحدود معظمهم من السودان ، وبعض رجال البوليس الفلسطيني.

ففي البداية اتخذوا مركزهم في بيارة محمد الددح ، ثم انتقلوا الي مدرسة إسدود الإبتدائية خلال عطلة الصيف. وقد حلّ مكانه أثناء غيابه لفترة قصيرة اليوزباشي لطفي واكد. ثم رجع اليوزباشي جمال صابر لفترة ثانية.

وعندما بدأت السنة الدراسية في أول سبتمبر ، انتقل مركز الحاكم الإداري إلي بيت حسن عطوان علي الطريق العام. وتولي المنصب الصاغ (الرائد) محمود أنور إبراهيم ، واستمر في منصبه هذا حتي انسحاب القوات المصرية من اسدود ، وكانت سيارته آخر عربة عسكرية مصرية تركت اسدود ، عصر يوم الخميس ، في 28 تشرين أول / أكتوبر 1948.

وثاني يوم من وصول القوات المصرية إلى اسدود ، شرع الحاكم الإداري في تولي مهامه. ومن أوائل الإجراءات الأمنية التي اتخذها كان إصدار بطاقات تحقيق شخصية للبالغين من الرجال من أهالي اسدود والمقيمين المهاجرين . كما اتفق مع مخاتير اسدود على توفير الحراسة للمناطق الخالية من الجيش حول البلدة ، وذلك من قبل شباب القرية المسلحين الذين كلفوا بحراسة المناطق المحاذية لحمولة كل منهم. وقد لعب هؤلاء دوراً هاماً في معركة اسدود المشهورة في أوائل حزيران \ يونيو 1948 م ، وخاصة على الجبهة الغربية حيث تعقبوا الصهاينة في الكثبان الرملية.

وفي نهاية تموز \ يوليو 1948 م ، وافقت الإدارة المصرية على فتح مكتب للبريد في اسدود. وتم ذلك بالإتفاق مع مدير مكتب بريد المجدل على تعيين المختار محمد عبد الرحمن زقوت مديراً لمكتب البريد. وقد باشر المكتب أعماله ، وتمكن الناس لأول مرة من إرسال الرسائل وتلقيها. وتم تزويد المكتب بهاتف ابتداء من أول أيلول \ سبتمبر 1948 م.

إحتلال مستعمرة نتسانيم

في أعقاب الهجوم الإسرائيلي الفاشل في 2-3 يونيو/حزيران 1948 على قرية اسدود ، قررت القيادة المصرية ضرورة احتلال نتسانيم نظراً للدور الاستراتيجي الذي لعبته في ذلك الهجوم. وتقع المستعمرة علي مسافة ثلاثة كيلومترات من جنوب غرب اسدود ، وعلي بعد كيلومترين من البحر ، لذلك سميت نتسانيم ، أي مستعمرة الساحل. كما تبعد حوالي كيلو متر واحد من الطريق العام بين غزة وإسدود. وفي فجر يوم الأحد ، السابع من يونيو/حزيران 1948 ، بدأت المدفعية المصرية تدك حصون المستعمرة. كما احاطت القوات البرية المصرية بها ، ومعها اعداد كبيرة من شباب اسدود المسلحين ، الذين كانوا ينتظرون ذلك اليوم بفارغ الصبر. وفي عصر ذلك اليوم ، أي حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر ، استسلمت حامية المستعمرة ، ودخلتها القوات المصرية منتصرة ، واسرت حوالي 120 من الصهاينة. وقد حاول الجيش الاسرائيلي استردادها في يومين متتاليين ، في 8 و 9 يونيو/حزيران ولكنه فشل في ذلك. وظلت المستعمرة تحت سيطرة الجيش المصري حتي انسحابه من إسدود في 28 أكتوبر/تشرين أول من عام 1948.

لقد هرعت اعداد كبيرة من اهالي إسدود لدخول المستعمرة ابتهاجاً واحتفالاً بهذه المناسبة. وكنت أحد هؤلاء الناس ، وتجولت في خنادقها المتعرجة التي كان يستعملها الجنود الصهاينة. وقد فرحت بالتقاط بعض القنابل اليدوية, ولكن حين خروجي من المستعمرة أخذها مني بعض الجنود المصريين خوفاً علي حياتي من خطورتها.

ومما يجدر تسجيله هنا ، أن عبد الحكيم عامر (الذي أصبح فيما بعد نائباً للرئيس المصري جمال عبد الناصر) كان من بين القوات التي اشتركت في احتلال نتسانيم ، وقد اشترك في ذلك الهجوم جنود الكتيبة التاسعة والكتيبة السابعة بمساندة المصفحات والمدفعية. كان عبد الحكيم عامر أركان حرب الكتيبة التاسعة ، والتي كان يقودها اللواء محمد نجيب. اما جمال عبد الناصر ، فكان أركان حرب الكتيبة السادسة ، وقد صدرت اليها الأوامر بالتقدم الي إسدود بعد معركة 2-3 يونيو/حزيران ، لتتسلم كتيبته المواقع من الكتيبة التاسعة. فوصل إسدود مساء يوم الأحد في 6 يونيو/حزيران ، والتقي بصديقه عبد الحكيم عامر بعد منتصف نفس الليلة التي اخذت فيها المدفعية تدك حصون مستعمرة نتسانيم. ولم تشترك الكتيبة السادسة في ذلك الهجوم.

في أوائل يونيو/حزيران ، قرر مجلس الأمن الدولي فرض هدنة في فلسطين مدتها أربعة اسابيع ، ابتداءً من 11 يونيو/ حزيران إلي 9 يوليو/ تموز من عام 1948. ثم استؤنف القتال واستمر عشرة أيام حين فرض مجلس الأمن الهدنة الثانية ، والتي بدأت في 18 يوليو/ تموز 1948.

وخلال فترة الهدنة الأولي ، وبالتحديد في 7 يوليو/ تموز 1948 ، قام الملك فاروق بزيارة القوات المصرية في فلسطين. وقد فرضت القيادة المصرية في اسدود حظر التجول علي سكانها ، وخاصة علي المناطق المحاذية للطريق العام (الاسفلت) ، ولكن هذا لم يمنع الناس من استراق النظر من ابواب بيوتهم لمشاهدة الموكب الملكي حين قدومه وحين مغادرته. وقد استغرقت الزيارة يوماً واحداً. ولقد اطلق الصهاينة الرصاص علي الموكب من مستعمرة كفار داروم ، الواقعة شرق دير البلح. ويروى بأن الملك فاروق أمر باحتلالها وبالفعل تم ذلك في 9 يوليو/ تموز 1948.

خلال الأسابيع الثلاثة الأولي من حرب عام 1948 ، أي من 15 مايو/ أيار إلى 7 يونيو/ حزيران 1948 ، حققت الجيوش العربية انتصارات علي قوات اسرائيل في جميع الجبهات ، وكان ذلك في معركة اللطرون في 25 مايو/ أيار ، حين فشل اليهود في فتح الطريق الرئيسي إلي القدس, وفي معركة جنين 1-2 التي وقعت في يونيو/ حزيران مع الجيش العراقي , ومعركة إسدود في 2-3 يونيو/ حزيران مع القوات المصرية.

لذلك كانت الهدنة الأولي في صالح اسرائيل ، فقد تنفست قواتهم الصعداء. وهكذا استغلها اليهود الي ابعد الحدود. فأعادوا تنظيم تشكيلاتهم العسكرية ، وحصلوا علي كميات هائلة من الأسلحة المتنوعة والمتقدمة ، كما وصلتهم اعداد غفيرة من المتطوعين. وتضاعف عدد قواتهم العسكرية. فبينما كانت 35 ألفاً في 15 مايو/أيار ، أصبحت حوالي 65 ألفاً في 9 يوليو/تموز. اما الأسلحة ، فقد وصلتهم 25 ألف بندقية ، و 5000 مدفع رشاش ، وخمسون مليون طلقة من تشيكوسلوفاكيا ، ومدافع ثقيلة من سويسرا ، وطائرات مقاتلة ، وطائرات نقل قاموا بتحويلها الي طائرات مقاتلة ، و ثلاث طائرات من قاذفات القنابل ، من طراز B-17. ولذلك حين استؤنف القتال في 8-9 يوليو/تموز، كان الجيش الاسرائيلي أفضل تسليحاً وأكثر عدداً عما كان عليه في مايو/أيار.

أما الجيوش العربية ، فقد زاد حجمها ، وتعززت القوات المصرية ببضع كتائب من مجندين مصريين جدد وعدد من الجنود الاحتياط. لكن ما وصلهم من أسلحة وذخائر كان قليلاً نسبياً بسبب الحظر الذي فرضته بريطانيا علي بيع الأسلحة لدول الشرق الأوسط. وكانت هي المصدر الرئيس والوحيد لتسليح الجيوش المصرية والعراقية والأردنية. وحاولت مصر أن تشتري أسلحة من السوق السوداء ، خاصة من ايطاليا ، لكنها لم توفق بسبب عدم كفاءة الذين كلفوا بهذه المهمة الحساسة. وقضية الأسلحة الفاسدة كانت من الأسباب الرئيسة لقيام ثورة 23 يوليو/تموز 1952 في مصر.

خلال فترة القتال القصيرة (عشرة أيام) بين الهدنتين ، لم يحدث تغيير يذكر علي الجبهة المصرية فيما عدا احتلال القوات المصرية تبة 69 في 9-10 يونيو/حزيران ، وكانت معسكراً للجيش البريطاني ، وذلك لموقعها الإستراتيجي الهام لحماية خطوط المواصلات المصرية بين المجدل واسدود. وقد حاول الجيش المصري احتلال بيت دراس وقري السوافير الثلاث (ربما أملاً في ربط قواتهم في اسدود بقواتهم في الفالوجة). ولكن الهجوم فشل بسبب الخطأ الذي ارتكبه الضابط السوداني ، حين أطلق الإشارة الضوئية الخطأ التي تسببت في إطلاق المدفعية المصرية علي مواقع الكتيبة المهاجمة لبيت دراس.

وكان من أهم الأحداث في فترة القتال الثانية ، والتي تركت آثاراً عسكرية وسياسية بعيدة المدي ، احتلال مدينتي اللد والرملة في 11-12 يوليو/تموز 1948 ، بعد أن أمر غلوب باشا الحامية الأردنية هناك بالانسحاب بحجة أنها غير قادرة علي الدفاع عن المدينتين. وقصّة نزوح سكانهما إلي الضفة الغربية تدمي القلوب. أما عسكريا ، فقد كانت المدينتان تشبهان رأس خنجر موجه إلي تل أبيب ، قلب اسرائيل. وباحتلالهما انكشفت ميمنة الجيش المصري ، فتمكن الصهاينة من توجيه ضربة موجعة للجيش المصري ، فاخترقوا مواقعه وفكوا الحصار المضروب علي مستعمراتهم في النقب ، واجبروا القيادة المصرية علي تقصير خطوطها والانسحاب من مواقعها من إسدود الي غزة. وتمكن الصهاينة أيضاً من تأمين طريق تل أبيب القدس ، وتأمين خاصرة اسرائيل ، والاستيلاء علي مطار اللد.

وعلي العموم ظلت الأحوال هادئة علي الجبهة المصرية بعد بداية الهدنة الثانية ، في 19 يوليو/تموز ، وحتي منتصف أكتوبر/تشرين اول ، حين قررت إسرائيل القيام بهجوم شامل لفك الحصار عن مستعمراتها في النقب ، وخوفاً من تمديد الهدنة وتثبيت الحدود كما كانت عليه حينذاك. ومن أجل تنفيذ خطتهم رأى الإسرائيليون أن التحرش بالقوات المصرية ربما يكون مفتاحا مناسبا ، فقاموا بإرسال قافلة للمرور من ممر كرتيا ، وذلك حسبما يتيح لهم اتفاق الهدنة. وفعلاً أطلق المصريون النار علي القافلة ، فادعى اليهود بأن القوات المصرية بدأت خرق الهدنة ، فانطلقت القوات الإسرائيلية بكل طاقاتها الجوية والبرية ، وكان ذلك في 15 أكتوبر/تشرين أول ، وتمكنت من فصل القوات المصرية بالمجدل عن القوات المصرية في قطاع الفالوجة – بيت جبرين – الخليل. واستمرت المعركة إسبوعا ، من 15 إلى 21 أكتوبر/تشرين أول ، تمكنت خلاله القوات الإسرائيلية من فصل قطاعات القوات المصرية غربها عن شرقها وشمالها عن جنوبها.

هذا الوضع العسكري المتأزم دفع اللواء أحمد المواوي أن يبرق للقاهرة بأنه ينوي تقصير خطوطه القتالية وتجميع قواته ، واقترح الإنسحاب من اسدود والمجدل وبيت جبرين وبيت لحم والخليل وتركيز القوات وتعزيزها في قطاع غزة– بئر السبع ، وأضاف أن هذا خط دفاع ضروري عن أرض مصر.

المهم أن إسرائيل التقطت الرسالة ورد القاهرة عليها ، كما اعترضت طلب القاهرة من القوات الأردنية والعراقية المساعدة وردهم بالرفض. هذا الموقف شجع إسرائيل علي الاستمرار في العدوان ، ومراوغة الأمم المتحدة في وقف اطلاق النار ، والانسحاب الي حدود 14 أكتوبر/تشرين أول ، حتى تتمكن من احتلال بئر السبع لإفشال خطة المواوي. وفعلاً تم لها ذلك فاحتلت بئر السبع في 21 أكتوبر/تشرين أول ، وحينها أخبرت الامم المتحدة بقبول وقف اطلاق النار ، وأخذت تراوغ وتماطل في الانسحاب الي حدود 14 أكتوبر/تشرين أول.

اما المواوي فقرر نقل قيادته من المجدل إلي غزة ، واهتم بتأمين انسحاب القوات المصرية من اسدود والمجدل الي غزة ، عن طريق جديد بمحاذاة شاطئ البحر ، لأن اليهود قطعوا الطريق العام بين غزة والمجدل حين احتلوا بعض التلال شرقي جسر بيت حانون.

الرحيل

هذه هي خلفية انسحاب القوات المصرية من اسدود ، وما تبعها من رحيل سكانها في عصر يوم الخميس ، 25 ذو الحجة 1367 ه ، الموافق لِ 28 تشرين أول / أكتوبر 1948. وأذكر جيداً أن بعض الناس لاحظ تحركاً غير عادي للقوات المصرية في إسدود ، وحين استفسروا من الجنود ومن الحاكم الإداري ، الصاغ أنور إبراهيم ، عن طبيعة تلك التحركات ، كان الرد أنها تبديل للقوات فقط. وقد استغرقت العملية حوالي أسبوع. وفي آخر يوم منها ، اخبرنا الحاكم الاداري أنه " بإمكانكم الرحيل اذا أردتم " ، حيث أن القوات المصرية قررت الانسحاب نهائيا من اسدود.

هرع الناس الي بيوتهم يجمعون ما استطاعوا من أشياء يحملونها علي ظهورهم أو رؤوسهم أو علي ظهور حيواناتهم ، وكانت في معظمها ملابس شخصية او أشياء ثمينة. وقد ترك بعض الناس مجوهراتهم من شدة الفزع ، ولكنهم عادوا إليها من المجدل أو بعد وصولهم إلى غزة. كما أنّ سكان القري المجاورة ، الذين كانوا مقيمين في اسدود ، تابعوا سيرهم الي قطاع غزة ، بينما قضى معظم اهل اسدود ليلتهم الأولي شرقي قرية حمامة أو في المجدل ، أملاً في العودة الي بلدتهم بعد أيام أو أسابيع ، ولكنهم بعد أن تأكدوا من انسحاب القوات المصرية من المجدل ايضاً ، استأنفوا مسيرتهم الي قطاع غزة. وهكذا اكتملت فعلاً عملية الإنسحاب من المجدل في الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني 1948.

خلال الأسبوع السابق للرحيل من اسدود ، تعرضت البلدة لقصف مكثف من الطائرات الاسرائيلية لحوالي اربع ليال متتالية ، واضطر الناس اثناءها ترك منازلهم الي كروم العنب في منطقة الرمال أو في الحواكير المجاورة. وقد احتمى بعض الناس بالخنادق التي حفرت في الجرون الغربية لهذا الغرض. وقد عاني الناس أشد المعاناة في تلك الليالي ، لأن القصف كان عشوائياً دون تحديد أهداف معينة. وكانت الطائرات تفرغ حمولتها من القنابل المصنوعة محلياً ، وهي عبارة عن براميل ضخمة من المواد المتفجرة ، وبعضها لم ينفجر ، أما اذا انفجرت فكانت تحدث خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات.

وفي الغالب كان الفصد من ذلك القصف هو إرهاب السكان وزرع الخوف في نفوسهم حتي يرحلوا عن بلدتهم. ومما لا شك فيه أن ذلك قد ترك أثراً سيئاً في نفوس الناس ، فحالما سمعوا خبر انسحاب القوات المصرية أصاب معظمهم الهلع ، وشرعوا في الرحيل دون تفكير في مستقبل أو مصير.

وقد قام عدد من شبان القرية المثقف ، وعلي رأسهم أعضاء عصبة التحرر ، ومنهم المختار محمد عبد الرحمن زقوت وعبدالله ربيع زقوت ومحد خالد البطراوي ، بمحاولة اقناع السكان بالصمود في بيوتهم وعدم النزوح ، والاّ يستمعوا للتصريحات الجوفاء من الحكام العرب والاذاعات المأجورة ، ولكن بدون جدوي.

لقد صمد من السكان عدد بسيط لا يتجاوز الاربعمائة من الإختيارية (كبار السن) وقليل من الشباب ، وربما عائلة أو عائلتين بنسائها وأطفالها (مثل عائلة عبد الله ربيع زقوت).

وبعد يومين ، دخل الإسرائيليون القرية ، فجمعوا السكان الذين طالبوا بالبقاء. وبالفعل استجابوا لطلبهم وتعين الشاويش ساسون غوتليب Sasson Gotlieb حاكما عسكريا للبلدة. ولكن عادت قيادة اللواء الجنوبي في الجيش الاسرائيلي فنقضت قرارها السابق ، لأنه لم تكن هناك سياسة ثابتة حول كيفية التعامل مع السكان العرب الفلسطينيين في الجنوب ، كما كانت عليه الحال في الجليل. وتكرر نفس الموقف في حمامة.

وبالنسبة لإسدود ، فقد جمع اليهود جميع السكان الذين رفضوا الرحيل وحمّلوا كبار السن من رجال ونساء في شاحنات وانزلوهم في أطراف المجدل ، بعد ثلاثة أيام من احتلال إسدود. فأخذ هؤلاء يبحثون عن ذويهم ، وتابع بعضهم السير علي الأقدام الي غزة للالتحاق بعائلاتهم. أما الشباب ، وكان يتراوح عددهم ما بين 35 و 40 شخصاً ، فقد اعتقلتهم السلطات الإسرائيلية ونقلتهم مؤقتاً إلي معسكر شحمة ، بالقرب من قرية قطرة. وبعد إتمام التحقيق معهم ، نقلوا الي معسكر صرفند ، حيث مكثوا هناك الي حين اطلاق سراحهم في صيف عام 1949 ، وكان من بينهم محمد عبد الرحمن زقوت ، وأحمد حسين صالح ، ومحمد خالد البطراوي. ولم يتخلف من أبناء إسدود سوى عبد الله ربيع زقوت ، الذي لم يكن من المعتقلين بل كان مدرساً بالمجدل ثم أخذت سلطات الاحتلال تطارده ، فاضطر للتنقل بين عدة أماكن ، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في قرية ترشيحا بقضاء عكا. وأخيراً استقر به المقام مع زوجته وأولاده في الرملة ، وعاش بها حتي وفاته في عام 2005 م.

بينما في المجدل وافقت السلطات الإسرائيلية علي بقاء السكان العرب ، بل وطلبت من الهاربين الي الكروم والبيارات العودة إلي منازلهم. وقد بلغ عدد سكان المجدل الذين رفضوا الرحيل حوالي الألفين ، فتعيّن لهم حاكم عسكري يهودي ، ليشرف علي إدارة شؤون سكان المدينة من العرب والمستوطنين اليهود ، الذين اخذوا يتوافدون ويستقرون في المجدل ، في بيوت السكان العرب الذين غادروها الي غزة. ومع ازدياد أعداد المستوطنين اليهود ، نقضت السلطات الإسرائيلية قرارها بالسماح لعرب المجدل بالبقاء في مدينتهم ، واخذت تتبع أساليب ملتوية للخلاص منهم. وأخيرا تمكنت في عام 1950 من اخلاء المجدل تماما من سكانها العرب وطردتهم جميعاً الي قطاع غزة.

وفي 24 فبراير/شباط 1949 ، وقعت مصر واسرائيل إتفاقية رودس ، وبموجبها انسحبت القوات المصرية ، المحاصرة في الفالوجة وكذلك القوات المصرية التي كانت في منطقة الخليل ، الي قطاع غزة ومنها الي مصر. وقد أقامت الإدارة المصرية بالقطاع استقبالاً حافلاً بعودة تلك القوات بقيادة الأميرالاي السيد طه ، وكان يلقب " بالضبع الأسود " ، قائد حامية الفالوجة ، وكان من بين أبطالها البكباشي جمال عبد الناصر (الذي قاد الثورة ضد الملك وأصبح رئيساً لمصر فيما بعد).